

في كتاب البخلاء للجاحظ

—•••••—

قرأ عظيم من عظماء الفكر في مصر كتاب البخلاء للجاحظ في طبعة وزارة المعارف التي ضبطها وشرحها وصححها الأستاذان أحمد المومني بك وعلى الجارم بك، عضوا مجمع اللغة العربية الملكي فرأى فيها بعض المآخذ على التصحيح أو على الشرح آثر حفظه الله أن ينشرها في الرسالة خدمة لهذا الكتاب القيم عسى أن تقيده من اقتناء في هذه الطبعة، ومن يريد أن يعيد طبعه عنها. ونحن ننشرها شاكرين للأستاذ العظيم فضله على اللغة، وعطفه على الأدب، وصلته به ماصلة الرجل الكامل الذي يأخذ كل شيء مأخذ الجد الصارم، وإن لم يكن من صميم عمله ولا من حر اختصاصه.

في الجزء الأول

في ص ٢٨: « وإذا كان البكاء (الذي) ما دام صاحبه فيه فإنه في بلاء — وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ ودل على السخف

وقضى على صاحبه بالهلع، وشبهه بالأمة اللكماء، وبالحدث الضرع — كذلك، فما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرو إلى أن ينقطع عنه سببه؟ »

قال الشارحان: لم تكن (الذي) في النسخ التي بين أيدينا وقد أبتناها من نسخة الشنقيطي ليكون المعنى بها أوضح. ثم قال في رقم ٥ من الشرح: وقوله « كذلك » خبر كان وأنا أرى أن كلمة « الذي » مقحمة لأنها تفسد المعنى، وأزواج الشرط « إذا » هو قوله: فما ظنك بالضحك إلا لا قوله « كذلك »؛ لأن كلمة كذلك إنما هي لضم « الحدث الضرع » إلى « الأمة اللكماء » في تشبيه صاحب البكاء بهما ومن الخطأ الفصل بين كلمتي الضرع و(كذلك) بتلك « الشرط » — بذلك تتحرر العبارة، وتنزل على المعنى المقول الذي يريد الجاحظ وهو أن البكاء مطلقاً ما دام صاحبه متلبساً به فهو في بلاء؛ ورءى أعمى البصر، وشبهه بالأمة اللكماء، وبالحدث الضرع كذلك وإذا كان هذا شأن البكاء على الإطلاق « أي لا شأن نوع منه؛ فما ظنك بالضحك الخ.

لأنترن دماغك في جنبيات هذه القرعة! ...

أما المسكينة فكانت تسمع ولا تفقه، لكنها أدركت أنها بيت القصيد، وأنها قد وقعت في الفخ. ولما رأى فهم أن المسألة قد تآزمت، وأن غرفته ستصبح مسرحاً لرواية مخزية، ولعاجمة مؤلة، قال للفتاة بلغة لا يفقهها جيرانه: —

— لا تجزعي، سأغلق عليك الباب، وسأذهب في طلب بوليس الأخلاق ...

وأقبل الباب على الفتاة واجتاز العزاب وقد ترهبوا في العمر يهدرون كالإبل. وبعد دقائق معدودات، عاد فهم ويرققته نقران فتبهرت العزاب هنا وهناك، وخرجت الفتاة بحراستها، وقد سترت رأسها ووجهها بمنشفة حتى لا يراها أحد، ثم تركوا الدير أربعتهم وساروا في الطريق مما، دون أن يتبصروا بكلمة واحدة. وإذا بلغوا مسكن الثفرين، وقف فهم يستودعهما ويشكرهما على حسن سنيهما. فأجاب أحدهما: لا شكر على واجب. ولكن هلا تفضلت مع الفتاة لنقض السحرة عندنا؟! نجاني صرني

المجلد يدفعون باب الترفة بمنابهم وكادوا يحطمونه لو لم يسارع فهم إلى فتحه، فإذا به يشاهد المرض وقد رفع مجلد الكتب على كتفيه، وهو في قيص النوم، وبائع الخضار وقد التفت ببهاء وهو حاسر الرأس حافي القدمين، وبائع الألبان واقفاً بسرواله الواسع ويده هراوة ثقيلة ...

ما هذه الاغارة؟ وما الذي يريد هؤلاء القوم؟ ...

إنهم العزاب ... شحوا رائحة الأثونة المسكرة تعبيراً بأبواب غرفهم، فهبوا من فراشهم وتبعوا الأثر إلى أن قادتهم أقدامهم إلى غرفة فهم، وكان منهم ما كان ...

قال المرض لجاره الذي أدخل بشروط المزوية:

— نحن جيران يا أخي منذ خمس سنوات، وهل قصرت معك في شيء؟ هل طلبت يوماً روحى ولم أضمه تحت تصرفك؟ وقال بائع الخضار: يا فهم ... إننى أعهدك صريحاً فلو أطلعتنى منذ أمس على قصدك لكنت مددت لك يد الممونة، ولسترت عليك الأمر، ولما درت هذه الكف ما تفعله الكف الأخرى. وتقدم بائع الألبان مزججراً والمراوة في يده وقال: وحق من بسط الأرض، ورفع السماء، إن لم تقبلنا في مهرك هذه،

معناها التصميد أى تأويل الأجسام إلى غازات ، أو تخفيف الكثيف وجعله رقيقا .

وجاء فى صفحة ٩١ : « ولست أرضاك ولو كنت فوق البنين ، ولا أثق بك وإن كنت لاحقا بالآباء ، لأنى « لم أبلغ » فى محبتك » والصواب فى محنتك لا فى محبتك ؛ لأن عبارة « لم أبلغ » لا تتفق فى هذا المقام مع فى محبتك ، إذ الأب يصف حالة قائمة بنفسه قبل الكلام وأثناءه وبعده ، فإذا فرضنا أن (فى محبتك) غير محرفة ؛ فلا بد أن يكون ما قبلها محرفاعن « لا أبلغ » وبهذا التصحيح قد تكون عبارة ذلك الأب مفهومة . على أن الحق هو أنها صحيحة ، والمحرّف إنما هى العبارة التالية ، إذ الأب يقول لإبنه إن معارفى التى شغلنى تحصيلها عنك لم تترك لى وقتا أستريد فيه من اختبارى درجة عقليتك وامتحان مبلغ استعدادك . ولذلك تمشت عبارة « لم أبلغ » مع عبارة « فى محنتك » لأن الوالد يباليغ دائما فى محبة ابنه .

وجاء فى صفحة ٩٣ : « احتال الآباء فى حبس الأموال على أولادهم بالوقف ، فاحتالت القضاة على أولادهم بالاستحجار » وقال الشارحان وقد عدل عن الحجر ، وهى الكلمة المألوفة إلى الاستحجار التى لم نجد بها بهذا المعنى فيما بين أيدينا من المراجع . وأقول : ليس الإستحجار هو الحجر حتى يكون الجاحظ قد عدل عن هذه إلى تلك ؛ بل الواضح أن الاستحجار هو طلب الحجر ؛ واحتيال القاضى فى الاستحجار هو سميء بسوء نية فى جعل أحد الناس يطلب الحجر على الموقف عليه ، وهذا ظاهر لا يدعو للتشكك ولا للرجوع إلى المماجم .

وفى الصفحة نفسها يقول الجاحظ : « يا ابن الخبيثة : إنك وإن كنت فوق أبناء هذا الزمان فإن الكفاية قد مسختك » وأقول إنها مسختك بالماء المهمة لا مسختك كما فى التن ، ولا محنتك كما فى نسخة ليدن ، ولا محنتك بتشديد الجيم كما ينطق بمض المستشرقين . وذلك أن مسح الرجل أو مسحه بالتشديد معناها قال له قولا حسنا ليخذه به ؛ فالمراد إذن أن الكفاية أى رغد العيش الذى أتت فيه قد فتنتك وخذعتك عن نفسك .

وجاء فى صفحة ١٠٢ : « وزرته أنا والمكي ، وكنت أنا على حمار مكار ، والمكي على حمار مستمار ، فصار الحمار إلى أسوأ من

على أن من يريد إقحام « الذى » بعد كلمة البكاء لتقابل كلمة « الذى » الواردة بعد كلمة الضحك فى جواب الشرط ، لا بد أن يحذف الواو قبل كلمة « ربما أعمى » لتكون ربما وما بعدها خبرا لكان .

وجاء فى صفحة ٣٤ : « وإن من أعظم الشقوة ، وأبعد من السعادة ، ألا يزال يتذكر زلل المعلمين ، ويتناسى سوء استماع التلمذيين » وأظن أن كلمة (من) فى قوله وأبعد من السعادة زائدة أو واجبة التقديم على « أبعد » ؛ وإذا حذف على اعتبارها زائدة فلا بد من جر « أبعد » بالمطف على أعظم .

وجاء فى صفحة ٧٧ : « قال أبو مازن وأرخى عينيه وفكاهى ولسانه ، ثم قال : سكران والله ! أنا سكران » . وقال الشارحان تمليقا على (قال) الثانية : كان يمكن أن يستغنى عن قال هذه ، والصواب فى رأى أن قال الأولى صحتها « مال » إذ لو حذف قال الثانية لبقى الإشكال فى ثم .

وجاء فى صفحة ٨٩ : « قد عرفت الرأس حق معرفته ، وفهمت كسر الإكسير على حقيقته » والصواب على ما أظن من الإكسير لا كسر الإكسير . وفى الصفحة نفسها « وعرفت التنجيم والزرير والطرق والفكر » وقد فسر الشارحان كلمة الفكر بقولها : يحتمل أنه يريد بالفكر هنا طرق التفكير ، والذى أراه أن المراد بالفكر هنا هو قراءة أفكار الناس لا كيفية تفكيره هو ، وهذا النوع هو الشائع الآن عند كثير من المتكهنين .

وجاء فى صفحة ٩٠ : « ولولا أن أكون سببا لتلف نفسك لملت الساعة الشئ الذى بلغ بقارون » وفسر الشارحان المراد بتلف النفس هنا بما قد ينشأ بتعلم هذا العلم من طغيانها وتمردها . وأقول إن المراد سموية حمل هذا العلم لما ذكره بعد من مجابيه ، تلك السموية التى تقتضى بذل جهود مهلكة . وفى الصفحة نفسها فسر الشارحان « صنعة التلطيف » فى قول الجاحظ : « ولكنى سأنتى عليك علم الإدراك ، وسبك الرخام ، وأسرار السيوف القلمية ، وعقاير السيوف الجينية ، وعمل الفرعونى ، وصنعة التلطيف على وجهه » فسر صنعة التلطيف بصنعة النقش والتزيين . والأظهر أن التلطيف عملية كيميائية كما جاء فى طبعة ليدن . وما لا يبرف معناها بعد مراجعة كتاب الحيوان ، فالغالب أن